



قراءات في نصوص إستشراقية فرنسية رئيسية

ملخص كتاب : النظرة إلى الآخر في الخطاب الغربي

جان جبور، دار النهار، ط1، 2001

أستاذ في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، قسم اللغة الفرنسية وآدابها

ترصد هذه الدراسة تطوّر نظرة الغربيين إلى الشرق من القرون الوسطى حتى مطلع القرن العشرين، عبر تحليل نماذج أدبية- مختارة من الرواية والمسرح وأدب الرحلة- لكتاب فرنسيين معروفين، أمثال بوستيل وراسين وفولتير وفولناي وشاتوبريان وهوغو ولامارتين وفلوبير وغيرهم. كما تبين كيف أن معظم هؤلاء الأدباء عكسوا في نتائجهم المقولات الثابتة الراسخة في أذهان مواطنيهم والتي اتخذت شكل قوالب نمطية، فأتى "تمثيل" الشرق من خلال مفاهيم وصور له علاقة لها بالواقع في أغلب الأحيان.

الباب الأول: القرون الوسطى وبدايات النهضة: الحروب الدينية وتشكّل صورة الآخر

الفصل الأول:

الشرق والنموذج الملحمي
أنشودة رولان [كاتبها غير معروف]

- 1- صورة الأعداء: هويتهم، أسماؤهم وأشكالهم، صفاتهم الخلقية (شعوب ملعونة/ جبن/ مكر/ احتيال/ جهل/ التهور)
- 2- المعتقدات الدينية: (عبدة الأصنام/ غير موحدين/ يعبدون محمد، أبولان، ترفاغان)
(يقسمون بعجائب محمد وجسده/السجدة المحمدية/ يتقنون التعاويذ/ علاقة نفعية مع الآلهة/ يسبّون أصنامهم عندما لا تحقق لهم ما يريدون)
- 3- الصراع العسكري: المسلمون عمالقة/ متفوقون عددياً بشكل هائل

ملخص:

أنشودة رولان نموذج للجهل الناجم عن الوهم والتخيل
"عندما دخل الإفرنج إلى مدينة سرقسطة معقل الأشرار: حطموا التماثيل وكل الأصنام كي لا تبقى لا شعوزة ولا ديانة مضللة.."

الفصل الثاني:

الشرق بين التاريخ والأسطورة
أنشودة إنطاكية [Richard Le Pelerin]

- 1- في الوقائع والأحداث: جند الله الصليبيون/ بطرس الناسك والحملة الشعبية/مؤتمر كليرمون وانطلاقة الحروب الصليبية
سقوط إنطاكية: مجاعة في الجيش الصليبي/ خيانة قائد صليبي/ الرؤى والحربة المقدسة/المعركة الفاصلة
- 2- صورة الآخر: الأخيار والأشرار/قتال بين أبناء الله وعبيد الشيطان/ الأتراك (المسلمون): كفر، وثنيون، لصوص ملعونون،
أنصار إبليس، أتباع الشيطان، متوحشون، أنذال، لؤماء، خبثاء، رعاع..
صراع الكفر والإيمان
تفوق الجيش الصليبي على المسلمين رغم كثرتهم

ملخص:

أنشودة إنطاكية تروي أحداث الحملة الصليبية الأولى، نشيد ملحمي تغلب عليه المبالغة

الفصل الثالث:

بين السرد الروائي والتحليل الاحتوائي
(رواية صلاح الدين) [الكاتب مجهول]

تحولُ النظرة إلى صلاح الدين

- 1- نسب صلاح الدين: أرجع نسبه إلى شجرة غريبة لناحية الجد ووالدة الجدة
- 2- صفات صلاح الدين: زوجة الملك فيليبس الفرنسي: "صلاح الدين! يا أشرف الرجال، أيها الغني بالأخلاق أكثر من أي أمير على الأرض، أيها الشجاع أكثر من أي فارس، أيها الساحر بما وهبته الطبيعة أكثر من أي رجل في العالم.. يا زهرة الحب، يا أمل الفرح، يا مرآة المروءة والشرف، أيها الحكيم في كل تصرف"
- 3- صلاح الدين وتفاعل الحضارات: رحلات الغرب
الدم الفرنسي النبيل الذي يجري في عروقه دفعه إلى أرض الجدود
- 4- مغامرات صلاح الدين العاطفية: الحب العذري
ملكة فرنسا خدعت زوجها لملاقاة صلاح الدين، وقد دهشت بأنه "كافر" عندما كانت تراقصه
- 5- صلاح الدين والدين الحقيقي
ذكاؤه يدفعه إلى البحث عن الدين الحقيقي القويم، ويمر ببحثه هذا بثلاث مراحل: تلقن طقوس الفروسية، التعرف إلى المسيحية الأوروبية، طلب العماد والانخراط في المسيحية

ملخص:

شطحة من الخيال الشعبي الذي يستطيع تطويع الأحداث وإعادة صياغتها.

الفصل الرابع:

النموذج التركي في خدمة المشروع الغربي
"جمهورية الأتراك" [الكاتب: غليوم بوستيل]

- 1- إعادة الاعتبار الظاهرية: في القرن السادس عشر انشغلت أوروبا بالصراع الكاثوليكي البروتستانتي في وقت بسطت السلطنة العثمانية نفوذها الواسع. هنا انجلت الأوهام الأوروبية عن الشرق السوادوي، فاندفع غليوم، الكاتب، نحو امتداح الأتراك ليستحث الغربيين الناكثين، ونحو رصد مكامن القوة في البنية العثمانية تمهيداً لضربها.
- في وصف الأتراك شوّه اسمهم ونسبهم، ولكنه امتدح شجاعتهم وقدرتهم العسكرية وانضباطهم محاولة إثارة الأمراء الغربيين. على المستوى الديني أنكر الكاتب أن يكون الإسلام ديناً قديماً لكنه امتدح صلابه إيمان الأتراك واهتمامهم بالمسجد وتطبيقهم لقواعد المحبة والإحسان المسيحية، واعتبر أن انتصار الأتراك هو لون من الغضب الإلهي على الانشقاق الكنسي، بما يمهّد للسيطرة المسيحية على العالم حيث يدفع نحو التوحيد المسيحي.

- 2- المغربي اللعين أو الصورة الحقيقية للإسلام

تعلّق الأتراك بدينهم لا يشهد البتة لصوابية إيمانهم، والقرآن يحتوي "على الحماقات الأكثر غرابة" وما تكرر ذكر الله فيه إلا إمعاناً في التضليل، ونصوصه تعود إلى اليهود المنتشرين في البلاد الإسلامية، هكذا دين سيء لا يمكن أن يجسده التركي الطيب، لذا وجد الكاتب في المغربي اللعين خير نموذج.
فالمغاربة يتميزون بالعدائية المفرطة، إن تجاه أبناء دينهم أو تجاه أبناء الديانات الأخرى، وهم شديداً الادعاء بأن إيمانهم أنقى من بين سائر المسلمين. وهكذا يفجّر الكاتب مكنوناته ضد المسلمين عبر الهجوم على المغاربة.

ملخص:

هذه النظرة الجديدة للأتراك لم تكن بهدف تصحيح مسار فكري اعتُبر ثابتاً في الفكر الغربي وإنما من أجل إعطاء درس أخلاقي للمسيحيين الأوروبيين لحثهم على وقف الاقتتال الداخلي.

الباب الثاني: الكلاسيكية وعصر الأنوار: بين المغرب والتنوير

مقدمة: القرن السابع عشر كان قرن الاكتشافات الجغرافية، وتولد شعور أوروبي بانحياز مركز الثقل نحو الغرب بفضل الازدهار الاقتصادي، فلم يعد الهاجس نحو احتلال الشرق عسكرياً وإنما نحو إخضاعه واستثماره، وتلك كانت البدايات الفعلية لاستعمار الشرق. وأنشأت المراكز التجارية Les Echelles كوسيلة عملية للتوسع، تضاعف عدد الرهالة والسفراء والقناصل ونما دورهم تحت نظام الا مميزات Les Capitulations، وشكلت تقاريرهم مصدر معرفة جديدة عن الشرق.

الفصل الأول:

أدب الرحلة في خدمة المشاريع السياسية
"رحلة إلى الشرق" [الكاتب: جان تيفنو]

عدد كتب أدب الرحلة في القرن السابع عشر (200 كتاب) نقلت عن بعضها البعض بكثرة.

1- بين المشاهدة الحية والصورة الجامدة

أثناء رحلته عاشت تركيا حقبة شديدة الاضطرابات داخلياً وخارجياً (اضطرابات/ فتن/ اغتيالات/ انتفاضات محلية/ حرب مع البندقية للسيطرة على جزيرة كريت والخط التجاري عبر المتوسط). كما زار مصر وظل فيها مدة سنتين كانت فيها تعيش حالة تشرذم كبير على الصعيد السياسي والإداري، وزار القدس لمدة شهرين ونصف. اقتصر وصفه للمدن على معالمها العمرانية، وعلى التقاليد والممارسات الدينية ودراسة معمقة للمعتقدات الإسلامية، فيما لم يقل شيئاً عن تجربته الشخصية والمشاهدة الحية للشرق. قدم معلومات دقيقة، أحسن الكاتب تجميعها وتبويبها، لكنه أصدر أحكاماً قاطعة هي أشبه بحصيلة لأفكار سائدة في تلك الحقبة في أوروبا.

2- صورة الأتراك "أسياد الانحراف"

أجسادهم سليمة وقوية وليس كما في أوروبا، ملابسهم ذات ذوق رفيع، وتؤمّن الراحة وسهولة الحركة، والأتراك ليسوا متوحشين بل هم أناس طيبون وصادقون وأصحاب إيمان عميق ومن فرط تعلقهم بدينهم يتمنون لو اعتنقته البشرية جمعاء، والتقوى لديهم سمة عامة، والإخلاص للدين يوازيه احترام وتعلق وطاعة رؤسائهم الزمانيين. يعتبرون أنفسهم أفضل الأمم، وأكثرها شجاعة وبسالة، ولذا يسود لديهم شعور باحتقار الأمم الأخرى وبخاصة تلك التي لا تعتنق ديانتهم، وهم غالباً ما ينعتون المسيحيين بالكلاب.

والأتراك لا يهتمون بالعلوم، إذ يكتفون بتعلّم الكتابة والقراءة لحفظ القرآن، ويهتمون أحياناً بعلم الفلك وقراءة النجوم، ويميلون إلى الخرافات.

الأتراك عنيفون في التعبير عن مشاعرهم الغرامية، وهم من كبار اللواطيين وهي آفة شائعة لديهم، وهم عبيد الذهب، أما النساء فهن كسولات إلى أبعد الحدود، والبطالة تدفع بهن إلى فساد الأخلاق، ومن هنا التشدد الصارم تجاههن. أما ديانة الأتراك فملئمة بالحماقات والتفاهات ويعجب كيف أنها استطاعت استقطاب هذا العدد الكبير من المتشيعين. وهو يعزو السبب إلى أن هؤلاء الأتباع صم بإرادتهم ولا يريدون إخضاع أي أمر للعقل أو للمنطق.

3- صورة المصريين "أصحاب كل العيوب بامتياز"

سكان هذه البلاد بشكل عام، مسيحيين ومسلمين، هم ذوو بشرة سمراء حادقة، أشرار، لثام كبار، أخسّاء، كسالى، خبثاء وشاذون جنسياً، سارقون وخونة ومتعاطشون للمال، حتى أنهم يقتلون إنساناً من أجل فلس.

هؤلاء الأذلاء يحكمهم الأتراك كالعبيد أو بالأحرى كالكلاب.. إنهم ذوو طباع سيئة يستسيغون الإهانة وبيالغون في إجلال من يضربهم، مثل الكلاب، بينما نراهم لا يُطاقون ولا يقومون بأي عمل إيجابي إذا أحسنت معاملتهم. كسولون، وبالرغم من خصوبة أرضهم ترى الفقر معششاً في صفوفهم، حتى أن الخبز الذي يأكلونه سيء الطعم مائلاً إلى السواد لامتزاجه برواسب الفحم والرماد.

يبالغ هؤلاء الأوغاد باحتقارنا والإساءة إلينا.. رأى أكثر من مرة القناصل يُسجنون بدون سبب. حين يحتاج الأغا إلى المال يرسل بعض القواسين إلى حي الإفرنج يطاردون التجار وينهبون جيوبهم.

ملخص:

يقدم تيفينو صورة قاتمة عن الشرق.. على خلفية دينية وعرقية في نظره تجاه المصري الأسمر والأسود. هذه النظرة كانت مقدمة لنظرية راحت تشق طريقها لتتبلور في القرن الثامن عشر، وهي ترى بأن وضع اليد على الشرق يُعتبر عملاً مشروعاً، كون هذه المنطقة محكومة بالتخلف والتردي الخلقي ولا سبيل لخلاصها إلا بدفعها عن طريق القوة نحو التقدم، وهذا ما اقتنع به بونابارت قبل القيام بحملته على مصر في نهاية القرن الثامن عشر.

الفصل الثاني:

الشرق أو الحب على حد السيف

(بايزيد) [الكاتب: جان راسين]

مسرحية عُرضت على مسرح فندق البورغو في عام 1672، وأعيد عرضها 25 مرة بين 1672-1698

1- بين الحقيقة التاريخية والتجميل المسرحي

قال راسين أنه استقى معلوماته في المسرحية من السفير الفرنسي في اسطنبول "السيد دوسيزي" والفارس "دو نانتيويه" الذي سُجن في تركيا، والسيد دولاهيه الذي خلف دوسيزي، وكتاب المؤرخ الإنجليزي ريكو Rycout "التاريخ الحديث للسلطنة العثمانية"، وقصة فلوريدون للكاتب سوغريه.

القصة: أيام حكم مرادا الرابع حكم الأخير بقتل أخويه بايزيد وسليمان وكانا ذا شعبية ما أثار سخط الناس. بايزيد يُغرم بروكسلان محظية مرادا الرابع. والهدف ليس التقييد بموضوعية الحدث بل التعمق في دراسة مكونات النفسية الشرقية، حيث تأتي التفاعلات الداخلية أكثر عنفاً من الأحداث الخارجية، وتتوالى الوقائع المأساوية إلى النهاية.

2- الشرق والأبواب الموصدة

داخل السرايا المغلق والمحكم والمعزول عن الخارج بواسطة الأسوار ثمة جناح تدور فيه الأحداث وتكثر فيه الممرات السرية والغرف المظلمة ويحرسه الجند والعبيد والبيكم. وهناك عدد وفير من جميلات أوروبا وآسيا اللواتي يعج بهن البلاط. السرايا مكان مقفل يعيش فيه الخوف وهو أشبه بسجن ولا تفتح أبوابه إلا لرسول قادم يحمل في جعبته أمراً بالموت، أو لجاسوس يُسقط أخبار المؤامرة، أو لرمي شخص غير مرغوب فيه في مياه البوسفور، أو لدخول الثوار إلى حرم السرايا. فأهل السرايا بمجملهم يعيشون وهم ينتظرون الموت الذي يتخذ شكل حكم جائر تصدره سلطة خفية بناءً لوشاية أو تبديداً لظنون.

والسرايا على رحابتها مكان يضيق حتى يكاد لا يتسع لامرأتين تتأكلهما نار الغيرة، إنه صورة مصغرة لقدر الشرق الجانح دوماً إلى تدمير ذاته عن طريق العنف الأعمى.

3- الشرق والعنف السياسي

التداول الطبيعي للسلطة القائمة على مبدأ الوراثة لا يتم دون أن ترافقه المصائب والويلات.. "أنت أدري بتصرفات سلاطيننا المعهودة.. فنادرأ ما يدع الأخ إخوته ينعمون بشرف انتمائهم إلى سلالته.. لأن ذلك تهديد للموقع الذي يحتله. هذا الواقع أعطى للعسكر أهمية كبرى، فمرادا يحاصر بغداد وهاجسه الفعلي هو السيطرة على الجيش الذي يخشى تمرده، وهو في سعيه لمد سلطان دين الله على أصقاع جديدة عبر الجهاد إنما يكرس سلطته الشخصية، إذ إن النصر دليل على رضا الله، وهذا التجاذب جعل علاقة السلطان بالعسكر علاقة تصادية. الوزير أكوما المنقذ لمؤامرة بايزيد أدرك دور علماء الدين في السلطة وإمكانية مواجهتهم له، فاجتذب من لهم وزن وثقل في هذه الساحة.

الشعب في هذه المعمعة يوصف بالغباء وتحركه المشاعر الآنيّة والعواطف الهوجاء ويسهل التأثير عليه وتدور الأحداث في يوم واحد يعطي صورة عن واقع الشرق السياسي الذي يُلخص بأن الخيار الوحيد هو أن تقتل أو تُقتل.

4- اللون المحلي والطبائع الشرقية

تجنب الكاتب رسم الصورة السطحية التقليدية عن الشرق من وجهة نظره، واعتبر أنه تولى مهمة الغوص في أعماق الشخصية والمجتمع، فخرج بنتيجة أن: أجواء السرايا، كما أجواء السلطنة بشكل عام، تتلخص بالقتل والاغتيالات والمكائد والصراع على السلطة، كما أن السمة العامة للشخصيات المتناولة هي الخيانة والمكر والوصولية، والشرق بلد التسلط والخنوع، والناس فيه منقسمون بين قلة متسلطة وغالبية منسحقة منقادة على قدرها، ولا تخلو النفسية الشرقية من السادية، حيث تمتزج رغبات الشخصيات بجنوح دفين للتلذذ بمآسي الآخرين، وتبدو الصورة أكثر قساوة حين يظهر الشرقي منقاداً إلى حسية غرائزية مفرطة تتحكم بمشاعره وأهوائه، ولا تخلو المسرحية من إشارات إلى الحسد والحقد والخبث والجبين.

ملخص:

رسمت المسرحية قصة يستحيل تصورها، من قبل الغربيين، إلا في السرايا: إنه الشرق!

الفصل الثالث:

الشرق بين الصورة الهزلية والدعوة إلى انتصار القيم الغربية

"السلطانات الثلاث" [الكاتب: شارل سيمون فافار]

تعتبر هذه المسرحية مثلاً على التيار الجديد الناشئ في القرن الثامن عشر والساعي إلى تجديد موضوعات المسرح الفرنسي عبر بوابة الشرق بعد أن سئم الجمهور من الموضوعات المستقاة من الميثولوجيا اليونانية والرومانية.

1- موضوع المسرحية

قصة سلطان تركي أحاط نفسه بخمسة امرأة صادف من بينهن وجود فرنسية جميلة تُدعى روكسلان تمكنت بفضل قوة شخصيتها من ترويضه إذ توصلت إلى إرغامه على التخلي عن جميع تلك النساء للقبول بالزواج به. وفي إطار التجاذب بين سلطة السلطان المطلقة في السرايا وسلطة الفتاة المستمدة من الجمال يقارن الكاتب بين القيم والتقاليد التي تكوّن حضارة الشرق وتلك المكوّنة لحضارة الغرب ليحط من قدر الأولى ويرفع من شأن الثانية، وما انتصار الفتاة

الضعيفة في النهاية إلا تأكيد على هشاشة القناعات السائدة في المجتمع الشرقي وصوابية المبادئ التي بُني عليها النموذج الغربي.
ولاقت المسرحية لذلك نجاحاً وعُرضت عشرات المرات، وعُرضت أحياناً في القرن التاسع عشر كذلك.

2- صورة السرايا:

أ- البذخ والعبث: يُكثر الكاتب من الإشارات التي تبرز الوجه الماجن لحياة تبدو مقتصرة على العيش الهانئ والتمتع بالملذات من مأكُل ومشرب وملبس واحتفالات تحييها القيان والراقصات ويتدافع فيها العبيد والإماء تنافساً في خدمة السلطان.
"استعمل السلطان صحوناً من النوع (المرطباني) وهو خزف صيني أغلى ثمناً من الذهب، ويسود اعتقاد في الشرق بأنه ينكسر ما أن يلامس السم"

ب- التسلط والخبث: بالرغم من أن نقطة ضعف السلطان هي النساء فإن تسلطه يبدو واضحاً، فالكل في حضرته مرتعد وخائف، وللمثول أمامه قواعد صارمة كالركوع والانحناء.
والجو العام قائم على الحيلة والخبث والتكاذب والتلطي ورائ المظاهر الخداعة، فالسلطان يعبر عن انشراحه بعد تذوقه النبيذ، ولكن بعد أن يأمر الحراس والعبيد بالانصراف، وهكذا تبدو القناعات المُعلنة وكأنها قشرة خارجية، ولا تلبث الرغبات المكبوتة أن تتفجر عند أول اختبار.

3- صورة السلطان:

السلطان سليمان في المسرحية شخصية هزلية يتعمد الكاتب تصوير تقلبها وضعفها، فهو أشبه بالعبوة في يد خادمه عثمان يشكو إليه همومه ويطلب إليه الوقوف بجانبه ويعتمد عليه في استمالة الفتيات. وهو متقلب الطباع والأهواء، وسريع الانفعال كذلك، ويتخطى في ضعفه أي تصور، إذ يقبل بأن تصبح روكسلان سلطانة وتقاسمه العرض متنكراً بذلك لكل التقاليد... ويقول لها: "علميني الدمثة والحلم... فالسلطة الفعلية تبدأ يوم نتعرف على الفضيلة".

4- صورة البطلة الأجنبية

تربّت على القيم الأجنبية، واثقة من نفسها ومتعالية، تتمكن من كشف مفاصد النظام الشرقي الذي لن يصلح إلا باعتماده على نموذج آخر متفوق مبني على الحرية والمساواة.. "يا للعرف! يا للضجر! ألا تلاحظ الفرق بين هذا البلد اللعين وبين بلدي! ففي فرنسا لا استعباد.. هناك لا تنتشق إلا الفرحة والحرية والبحبوحة.. والملك ليس سوى مواطن، وكل مواطن هو ملك.. في هذا الجو المبشر بالتفوق الغربي تنقلب الموازين فينحني السلطان أمام روكسلان لتوديعها، فيما هي ترد التحية بنظرة متعالية يغلب عليها السخرية والاستهزاء.. وفي إطار المقارنة بين الحضارات يطال الانتقاد الجارح العادات التركية في الأكل والملبس، ولا توفر البطلة في هجائها التقاليد الدينية، فتأمر بإحضار النبيذ، وحين تلاحظ الاستغراب بادياً على وجوه الخدم تقول: "إنهبوا وأحضروا النبيذ من منزل المفتي.. فعنده منه الكثير بكل تأكيد، وكونه صاحب فكر نيرٍ وقلب مستقيم فهو يصادر كل الكميات".

ملخص:

آخر مشهد في المسرحية يقول السلطان: "إني موافق على كل ما تقولين.. إنه إقرار علني بانتصار المفاهيم والقيم الغربية وتفوقها تنطق به أعلى سلطة تمثل النموذج الشرقي والذي تمكنت فتاة بسيطة من تقويض ركائزه القائمة على التسلط والاستعباد والعنف والإكراه.

الفصل الرابع:

الشرق بين الفلسفة والدين
(التعصّب أو محمد الرسول) [فولتير]

تعرّض فولتير في مسرحيته التي عُرضت عام 1741 للإسلام كإحدى حلقات صراعه مع الدين وما يمثل بنظره من تزمّت وخنوع، فيما الفكر الفلسفي الذي آمن به يبشّر بالتسامح والحرية، ففي مجتمع محافظ يتمتع فيه رجال الدين بنفوذ كبير وفي وقت صعّد فيه فولتير حملته ضد الكاثوليكية، اتخذ من الإسلام ذريعة تبدو مقبولة في بيئة معبّأة ضد الإسلام، فيما هدف فعلاً إلى التعرض لما يمثّله الدين من تعصب ذميم يؤدي إلى الفرقة والصراع ويغذي الحروب ويحلّل القتل والتدمير.

1- كلام البدايات: تزمّت الدين وشمولية الأخلاق (مسرحية زائير)

أنت هذه المسرحية في وقت أخرج فولتير إلى العلن صراعه مع رجال الكنيسة، إذ وازن بين الميول الفطرية العفوية والنبيلة وبين التراكمات المكتسبة كالدين والتربية والانتماء، ليخلص بأن الدين الحقيقي هو دين الفطرة وأن طريقه هو الإيمان المباشر بالله دون المرور بالطقوس التي تشوّه صفاء شخصيتنا. والتنشئة تجعل المرء أحادي النظرة، لا يساوره أدنى شك بامتلاك الحقيقة. والديانات تتساوى والحقيقة هي واحدة وإن تنوعت السبل إلى الله.

2- التعصّب أو محمد الرسول (1741)

أ- قرأ فولتير ترجمة إنجليزية للقرآن (ترجمها Sale)، وكتاب "حياة محمد" ل Boulainvilliers، و"حياة محمد" ل Gagnier، و"حياة محمد المخادع ل Prideause، ورغم نظرته المنفتحة تجاه الأديان فقد كانت مسرحيته هجوماً نقدياً قاسياً حيث يعتبر فولتير أن محمد دجال طموح يلجأ إلى الدهاء والعنف لتنفيذ مخططاته، لكنه يعترف لاحقاً بأنه قد بالغ في التشويه.

ب- صورة محمد: "إن أي إنسان عاقل يرفض الاقتناع بأن تاجر إبل ادّعى أن الملاك جبريل يتجلى له فيدخله في حالة انخفاف وتوحي له السماء بكتاب مبهم لا تخلو صفحة فيه مما يتعارض مع العقل والمنطق، استطاع أن يحول فتنة أثارها في دسكرة إلى حدث كبير اجتمع حوله بعض القرشيين، وأنه استطاع أن يفرض كتابه بالحديد والنار فيذبح الآباء ويخطف البنات ويجبر المغلوب على اعتناق دينه.. إنها أمور لا يقبلها أحد، اللهم إلا إذا كان تركيا وأعمت الشعوذة قلبه"، من رسالة فولتير إلى ملك بروسيا.

- الرسول المخادع: رجل طموح يعرف كيف يوظف ذكائه (نعم إنني أعرف شعبي جيداً، فهو بحاجة لمن يضلّه)
(إن انتصاري يرتكز بشكل دائم على التضليل)

- غاوي النساء: رجل حسي مفرط في الملذات يعدّ أتباعه بجنة تعج بالنساء من هنا الكلام على تعدد الزوجات كدليل على فساد الأخلاق في الإسلام.

ومحمد يجسد في المسرحية صورة العابث الذي لا يلجمه أي رادع أخلاقي، فينساق إلى أهوائه ويرتكب المحرمات ويسبب التعاسة لكل من حوله ولمن وضعهم القدر على طريقه.

- السفاح: طاغية متجبر قاسي القلب ومتوحش، ويبرر كل الوسائل للوصول إلى غاياته. يزرع الموت والخراب أننى حلّ، وهو لا يتردد في إصدار الأوامر بالقتل. "إنني أتيت لأفتش عن عرش وعن مذبح وعن ضحايا".

ج- صورة الإسلام: جاهز فولتير بعدائه لكل الديانات السماوية التي اتهمها بالجوء إلى قصص وهمية مليئة بالتناقض للسيطرة على أذهان الناس.

د- الله في الإسلام: قاس ومنتقم يشبه إله التوراة، وهو قوة غامضة يستند عليها محمد لتضليل الناس، ولا نجد إشارة واحدة إلى عدالته أو عنايته بالبشر، بينما الكلام يدور بشكل دائم على غضبه وانتقامه ومعاقبته.

- صورة الدين: مرادف للسذاجة ويقود إلى الخضوع الأعمى، بحيث يصبح أتباع الدين بائسين معدومي الشخصية فخورين بجهلهم ومسلوبي الإرادة.

3- الفلسفة في مواجهته الدين: اعرف عدوك

أ- محمد أو المسيح: رد رجال الدين الكاثوليك بعنف ضد مسرحية التعصب لأنها بدت انتقاداً للمسيح أكثر من محمد في العبارات التالية: "المرسل من السماء"، "ادعى الألوهية"، "أرسل تلاميذه للتبشير"، "وغصن الزيتون في يده" التي تحيل إلى المسيح لا محمد.

ب- الإسلام أو المسيحية: لستهدف فولتير حركة مسيحية فكرية معاصرة له عُرفت بالجنسية مرتكزة على مبدأ النعمة الإلهية والجبرية، فالإله هنا يوحى بالخوف ويطالب المؤمنين بإطاعته دون نقاش أو تفكير. فهتمت الكنيسة مؤدى كلام فولتير خصوصاً أنه يعتبر أن الديانات متماثلة وهي في سياق واحد، وهي لا حاجة لها ويمكن الاستغناء عنها.

ملخص:

ظل القرن الثامن عشر رغم اعتماد مفكره على المنطق أسير دائرة ضيقة ترى في الإسلام شعوذة قامت على العنف والتضليل وهي صورة نمطية موروثه من القرون الوسطى لم تتمكن كل المحاولات المتعلقة من إزالتها.

الفصل الخامس:

الشرق وأيديولوجيا التنوير

"رحلة إلى مصر وسوريا" [فولناي]

تأثر فولناي بفولتير وأفكاره بشكل كبير، ويتميز كتابه عن كل كتب الرحلات السابقة، حيث لم يحمل وصفاً غنائياً انفعالياً، ولا معلومات موضبة استقهاها من المراجع، بل يراقب ويستمع ويحلل ويقدم البراهين ويستخلص الاستنتاجات والعبر.. بل أشبه بدراسة علمية تحمل في طياتها شحنة من الأيديولوجيا المستندة إلى فكر التنوير، وهو ما أثار اهتمام رجال السياسة والمؤرخين وعلماء الاجتماع.

رغم ذلك أتت أحكامه على المجتمع الشرقي في غاية القساوة.. ما يبرر دعوته إلى احتلال الشرق بعد أن أصاب الوهن والفساد مؤسسته السياسية والاجتماعية والدينية وأصبح بحاجة ملحة إلى التجدد.

أولاً: ظروف الرحلة وأهدافها ومميزاتها

"قلت في نفسي بأن هذه البلاد كانت مهد غالبية الأفكار التي شكلت قناعاتنا، وعلى أرضها ولدت المبادئ الدينية التي طبعت خلفياتنا العامة والخاصة وكذلك شرائعنا وأحوالنا الاجتماعية، لذا رأيت من المفيد التعرف إلى الأماكن التي أنبتت هذه الأفكار وما تفرع عنها من قيم وتقاليد، وفي الوقت نفسه التعرف إلى ذهنية وخصائص الأمم التي أنجبتها. وقد وجدت من المفيد أيضاً النظر إلى أي حد حافظ هذا الفكر وهذه التقاليد على البراءة الأولى، وبالتالي ما هي العوامل التي أدت إلى إصابتهم بالتشوه وذلك بالنظر إلى تأثير المناخ وأشكال الحكم المتعاقبة وظروف تكوّن العادات"، من مقدمة فولناي لكتابه.

".. بدا لي بأنها فكرة رائدة أن أستجمع معلومات دقيقة حول التركيبة الداخلية لنظام السلطنة التركية لأحدد مكان قوته واستمراريته".

اعتبر فولنابي من سبقه من الرحالة غير مدركين لأهمية أخذ الوقت الكافي للتعرف على الشرق، وكذلك غير مهتمين باكتساب اللغة المحلية ما يقلل من قدرتهم على فهم الأمة ومميزاتها. ف "حين ينقصنا الوقت الكافي لا يمكننا الحكم على الأشياء بشكل صحيح، إذ أن الانطباع الأول يبهز ويصيب الفكر بالاضطراب".

أمضى فولنابي في الشرق أكثر من سنتين، وقضى سبعة أشهر يتعلم اللغة العربية في دير الخنشارة في جبل لبنان.

ثانياً: بلاد النيل بين تسلط المماليك وظلم الأتراك

أ- البشاعة.. في كل مكان!

"لا بد لمشهد الشقاء الذي يطبع الناس وذاك اللغز المحير الذي يلف المنازل من أن يجعلنا نقدّر شراسة الظلم وقساوة الاستعباد".
"لا يوجد بلد في العالم يوحى بالرتابة مثل مصر، فأنتى سرحت نظرك يقع على سهول جرداء وأفق مسطح رتيب وشجر نخيل هزيل وأكواخ فقيرة. لا غنى في المشاهد ولا تنوع في الأشياء.."

"حين يسرح مسافر نظره سوف يربعه منظر الصحاري المتوحشة وسوف يرهقه في تجواله العطش والتعب".
"الأتراك يجهلون فن الاعتناء بالجنائن المعروف في البلدان المتحضرة، وهم يحتقرون الحقول والزراعة". أما رؤيته للأهرامات فأغرقتة في تأمل حول قهر الشعوب.

"هؤلاء الراقصات بثيابهن الصفراء وبشترتهن القاتمة وصدورهن المندلقة وجفونهن المكحلة بالأسود وشفاههن الزرقاء وأيديهن المطلية بالحنة لم تذكرني البتة بكاهنات باخوس بل بالعاهرات في بيوت البغاء الرخيصة".

ب- مظاهر التخلف وأسبابه

"حيث لا يفيد الزارع من محصول تعبته لن يعمل إلا بالإكراه فتتراجع الزراعة، وحيث لا تؤدي المعارف إلى أي ترقٍ لن يجهد أحد لاكتسابها، فتغرق العقول في البدائية، وهذه باختصار حال مصر".

فالتابع العام هو سيطرة الجهل الذي يطال مناحي الحياة كافة، فلا حرف يدوية متطورة ولا معارف ولا علوم ولا صناعات، ذاك أن دوافع التقدم تكاد تكون منعدمة. ومن مظاهر الجهل هذا العداء السافر للكتب والنقص في الفضول المعرفي.

سبب هذا التخلف الشامل يعود إلى واقع التركيبة السياسية، فالشرق بنظر فولنابي هو في أيدي حكام لا يجيدون فن الحكم سواء أكانوا من الأتراك أو العرب أو المماليك.

فالعقل التركي يهدم ولا يبني، والعربي ينتصر ولا يحكم بفن، والمماليك لا يعرفون المؤسسات.

في هكذا أجواء لا تحكمها قواعد ولا أصول، من الطبيعي أن يشكل العنف لدى الحاكمين الوسيلة الوحيدة للسيطرة.

ثالثاً- بلاد الشام بين غياب المؤسسات وسيطرة الجهل

أ- نظام القهر وغياب المؤسسات

"حكم الأتراك في بلاد الشام هو تسلط عسكري محض، أي أن السكان يخضعون لإرادة مجموعة من المسلحين يسخرّون كل شيء لمصالحهم".

السلطان "بفضل العلي القدير وإنعامات سيد المرسلين، سيد كل الأباطرة وملاذ كل الحاكمين وواهب العرش وخادم الحرمين الشريفين وحاكم القدس الشريف وسيد أوروبا وآسيا وأفريقيا والعديد من البلدان والجزر والمضائق والشعوب والجيوش المنتصرة التي تستظل الباب العالي..".

ونظراً لاتساع مملكته ولكي يحكم قبضته يلجأ السلطان إلى تقسيمها إلى ولايات يحكمها باشوات طغاة يجمعون في أشخاصهم كل السلطات: العسكر، المال، الأمن، العدل.. ويسيرون شؤون ولاياتهم على هواهم.

تعيين الوالي ومن ثم استمراره في وظيفته رهن بالمال الذي يدفعه لوزير السلطان.
وبما أن الابتزاز يقع أخيراً على ظهور الناس فقد "قلصوا نشاطهم إلى الحدود الدنيا التي تؤمن لهم الحاجيات الأولية.. فكانت النتيجة تقهقر الزراعة والفنون والتجارة وانحدار نمو السكان.. أي تراجع كل العوامل المكونة لقوة الدولة.. مما ينعكس ضعفاً على السلطان بالذات".

وحتى القضاة فهم يعينون لقاء المال.
ويستنتج بأن العرب يحتاجون قروناً للحاق مجدداً بركب التطور بعد أن قصروا التعلم على دراسة اللغة بهدف حفظ القرآن وتجويده (نحو وفقه) والعلم لا يتطور إلا في الأطر الدينية، في ظل انعدام وسائل التعلم وندرة الكتب وقلة المطابع.

ب- الدين: انحسار الأخلاق وتعميم الجهل والتعصب
هاجم فولنابي المسيحية والإسلام، في اتجاه علماني
زار القدس وقال عن المسيحيين: "محتالون، خبثاء، كذابون، حقيرون في فقرهم ووقحون في غناهم" وقال له أحد كهنتهم أنه اتخذ مسلك الرهبنة هرباً من التسلط وطمعاً في الراحة.
رجال الدين يتآمرون ويتخاصمون وهم معدومي الثقافة ومتعلقون بالخرافات.
أما عن الإسلام، فإن تخلف المؤسسات و جهل الأفراد وتقهقر الأخلاق عائد بصورة أساسية إلى حضور الدين الطاغي، وبدل أن يحد الدين من تجاوزات نظام الحكم، فإنه على العكس يشكل مصدرها الأساسي.. "من المبالغة القول بأن فكر الإسلام يصلح لمعالجة تجاوزات الحكم".

ج- طبائع السكان

- التعلق بالمظهر الديني ناشئ من التعصب والحاجة للتمايز عن أتباع الديانات الأخرى
- الكسل والعبوس
- احتقار النساء
- الإستسلام للقدر والإيمان بالخرافات

رابعاً: انحطاط الامبراطورية التركية وأيديولوجيا الاحتلال
ناقض نظرية مونتكيو القائلة بتأثير المناخ على الحياة الاجتماعية، مبرهنناً بأن الحضارات الشرقية عاشت عصوراً ذهبية، معتبراً أن المشكلة تكمن في ضعف المؤسسات.

"المشكلة الحقيقية تكمن في المؤسسات القائمة، أي نظام الحكم والدين".

وحلّ أزمة التخلف في الشرق تكمن في تحرير السكان من وطأة الدين المهيمن على عقلم وحياتهم وتفكيك مؤسساتهم السياسية والاجتماعية كمدخل إلى الانخراط في حلقة التقدم باعتماد النموذج الأوروبي.

نظام الأمبراطورية العثمانية القائم على القمع وكبت الحريات والحامي للفساد في كافة مؤسساته والمعيق لتطور الزراعة والصناعة والتجارة والفنون والعلوم، يتحرك في غربة عن الناس، وهم لن يدافعوا عنه وسينهار عند أي خطر خارجي أو داخلي.
يظهر ضعف الامبراطورية في الداخل من الثورات المتأججة في أكثر من بلد(علي بك المملوكي في مصر/ الشيخ ضاهر في عكا)، وهجوم البدو على قافلة الحج.

نظرية وضع اليد:

عندما عاد إلى فرنسا وقارن بينها وبين الشرق الغارق في الظلام والفقر كتب ".. رأيت نفسي أنتقل في أحاسيسي من العجب إلى الشفقة فالتأمل.. هذه المناطق التي بدت لي خراباً كانت في الماضي مزدهرة.. فما الذي يضمن ألا يحل بأوروبا المصير ذاته؟".
اعتبر فولنابي أن لا حلّ لمشاكل البلدان التابعة للسلطنة التركية إلا باتباعها نموذجاً سياسياً واجتماعياً مطابقاً لفكر التنوير القائم في الغرب.

عندما أنهى فولنابي طباعة كتابه نشبت حرب بين الروس والأتراك 1787، فكتب ملحقاً بعنوان "تأملات في حرب الأتراك" اعتبر فيه أن السلطنة العثمانية تمر في مرحلة انحطاطها وتسير إلى قدرها المحتوم.. ويكتب: "أي طموح أنبل وأشرف من الطموح لتحرير شعوب كثيرة من نير الظلم والتعصب، وإحياء العلوم والفنون في أرض منبتها.. وتخطي مجد الشرق القديم بأمجاد جديدة لشرق منبعث".

ثم يسأل: أين تكمن مصالح فرنسا وكيف عليها أن تتصرف حيال الواقع التركي؟ ويحفل نصه هنا بالتعصب العرقي ضد الأتراك، ثم يرى بأن مصلحة فرنسا تكمن في احتلال مصر فهي "من أكثر الأراضي المعمورة خصباً وسهولة للزراعة.. كما أن مساحتها شاسعة ومحاصيلها تجمع ما بين منتوجات آسيا وأوروبا كما يمكننا استقطاب خيرات أفريقيا وبهذا تصبح فرنسا مستودع أوروبا والعالم بأسره".

صعوبات جمة سوف تعترض هذا الحلم (النزاع العسكري مع الأتراك والمصريين، حتمية التدخل الإنكليزي، المناخ الحار، تفشي الأمراض المعدية..) لذا يتردد في نصيحة غزو مصر، ويشير إلى ضرورة إجراء بعض الإصلاحات داخل فرنسا بانتظار متغيرات جديدة: "لا يجب أن نستنفذ طاقتنا لأن الأوضاع لا يمكن أن تبقى على حالها والزمن يهيء المتغيرات، والقرن المقبل ينبئ بتحولات سياسية كبرى في نظام العالم".

ملخص:

الشرق بنظر فولنابي قابل للتطور وإنما جوهر المشكلة يكمن في النظام السياسي الفاسد والمؤسسات المهترئة وسيطرة العقل الديني المتقوقع على أذهان الناس، وكان أن لقي هذه الكلام الموقع الحسن في أذن بونابارت فأقدم عام 1798 على مغامرة احتلال مصر، ويبدو من منشوره الأول الذي وجهه إلى المصريين بأنه قرأ فولنابي بتمعن شديد.

الباب الثالث: عصر الرومنسية، بين أحلام السفراء وأطماع الاستعمارية

- لم تنفع مظاهر المودة التي أبداهها بونابارت في حمل المصريين على الرضا بالاحتلال ومساعدته في مواجهة المماليك في صعيد مصر.
- لكن شكلت الحملة هذه مدخلاً عملياً للتفكير مجدداً بسياسة التوسع التي كانت قد توقفت منذ الحروب الصليبية.
- في النصف الأول من القرن التاسع عشر انتشرت الرومنسية، في أعقاب الثورة الفرنسية واضطراباتهما، كأحد الملاجئ التي هرب فيها الفنانون من الواقع وتمسكوا بحبال الخيال، فأصبح الشرق "هاجساً عاماً لفكر وخيال الغربيين" [هوجو]
- شكلت فكرة الاستيلاء على الشرق جامعاً مشتركاً لمعظم الكتّاب الذين وفدوا إلى الشرق.

الفصل الأول:

مقاتل صليبي جديد في الشرق

"رحلة من باريس إلى القدس"، [شاتوبريان]

الكاتب مؤيد متحمس للمسيحية "ربما أكون الفرنسي الأخير الذي يغادر فرنسا متوجهاً إلى الأراضي المقدسة بأفكار وأهداف ومشاعر الحجاج القدامى". وبدأت رحلته عام 1806 واستمرت شهرين فقط، استفاد منها في تجميع مشاهد تدعم صورة الشرق في ذهنه والمتضمنة الكثير من العدائية والحقد والأفكار المسبقة.

1- مناظر بائسة ومدن تعيسة

مدن الشرق كأنها مقابر جماعية وكلها تعكس التعاسة والحزن والخوف فلا يشده إلى حاضرها أي جاذب. "فلا علاقة فرح مظهر سعادة يلوح في العيون، وما تراه ليس بشراً وإنما قطيع يسوسه إمام ويذبحه انكشاري". الجمال الوحيد الذي تعرض إليه هو دلتا النيل والسهول الخضراء، إلا أن هذا الجمال "ينقصه حكم حر وشعب سعيد"، وتكمن روعته الفعلية في ما يحمل من ذكريات عابقة بعظمة فرنسا التي لا تزال روحها ترفرف فوق هذه الأمكنة (حملة نابوليون).

2- أتراك متوحشون وعرب لصوص

الأتراك شعب متوحش في معاملته للأخرين، معادٍ للحضارة والتطور، يقهر ويدمر ولا يؤمن إلا بالقوة "لأن عقيدتهم الفكرية والدينية أنشأتهم على تدمير معالم الحضارة والفنون وقطع الأشجار المثمرة وحرق الزرع.. وهذا ما يفعله الأتراك طوال حياتهم". وفي نفس الوقت هم شعب يبدو جباناً وذليلاً أمام تعسف حاكميه، وهم بدائيو التفكير، متطيرون يؤمنون بالخرافات، غدارون لا يراعون حرمة ولا يحافظون على عهد، محتالون متعطشون للمال، والبخل القاتل آفة عامة لديهم. والعرب إما شعب ذليل خائن من تسلط الأتراك يحني الرأس ويتقبل الإهانات، وإما منتفعون وسارقون، فهم مجموعة من البدو يتوزعون قبائل تعيش من الغزو ومهاجمة القوافل.

3- صورة الإسلام السياسي

التسلط السياسي والفوضى الاقتصادية القائمان في الشرق ناتجان عن مؤسسات فاسدة أساسها تركيبة ذهنية متخلفة أرساها الدين الإسلامي، وهي بطبيعتها تتعارض مع أي حرية أو تطور.

4- صورة الإسلام الديني

قصد شاتوبريان الشرق وهو يتمثل في ذهنه روحية المقاتلين الصليبيين القدامى. "منذ شهرين كنت قد غادرت عاصمة الشعوب المتحضرة (باريس) لأحط رحالي في عاصمة الشعوب المتوحشة". لم يشر الكاتب إلى أي آية من القرآن، إذ يبدو أنه لم يكن قد قرأه، فيكتفي ببعض التوصيفات العامة الرائجة: "لا نجد في كتاب محمد أي مبدأ حضاري أو أي تعليم يهذب النفس، فهذا الكتاب لا يحفز على كره الظلم ولا على التعلق بالحرية، وهو يرى أن النص القرآني يحث معتنقي الإسلام على الحرب والقتل وإخضاع الناس، حتى إذا استتب لهم الأمر أمضوا أيامهم بالبذخ والفجور. وقد بالغ الكاتب في وصف الظلم والاضطهاد الواقع على مسيحيي الشرق.

5- انهيار السلطنة وتدخل أوروبا

في كل البلدان التي مر بها لاحظ شاتوبريان بأن النظام القائم على التسلط مهدد بالسقوط في أي لحظة، وهذا النظام يقف بقدرة قادر مستفيداً من كثرة التناقضات الداخلية التي تمنع قيام ثورة شاملة. ولكن ما هو دور فرنسا إزاء هذا الواقع المؤلم؟ كان لاندلاع الصراع التركي اليوناني فرصة للكاتب لدعوة فرنسا إلى دعم اليونان بقوة عسكرية فاعلة.

ملخص:

انصفت نوايا شاتوبريان بعدائية مفرطة لذا كان من الطبيعي أن لا يلاحظ إيجابية واحدة.. وهكذا بقي الكاتب أسير أفكاره المسبقة وهو واجسه فراح يطلق أحكامه جزافاً.

الفصل الثاني:

الشرق والحلم المكسور

"الشرقيات"، [فيكتور هوجو]

"إن الشرق كصورة أو كفكرة أصبح هاجساً عاماً لفكر وخيال الغربيين، وهو جنوح وقع تحت سحره كاتب هذا الديوان بملء إرادته. فالألوان الشرقية انسابت تلقائياً فطبعت أفكاره وأحلامه.. من المقدمة. فالشرق بالنسبة لهوجو بلد الغرابة والسحر والألوان، بلد يبتدعه الخيال ويخلقه السفر، وهو تأثر كذلك بالانتفاضة اليونانية عام 1821، حيث اعتُبر اليونانيون بنظر الشباب رمزاً للبطولة والتحرر والعنفوان.

أولاً: مشاهد وآثار:

المدن المسحورة

الشرق بلاد رائعة الجمال بينما الشرقيون قساة ظالمون ومتوحشون.

1- إسبانيا: مدن الحب وقصور العز

2- تركيا: مآذن إسطنبول وبريق النجوم

3- الشرق القديم: عظمة الأهرامات والمدن الملونة

4- الصحراء: غرام الواحات والوحوش الكاسرة

ثانياً: الشرقي المتوحش

هنا نرى يونانياً يسرق تركياً عجوزاً

فيقيده سيده بسلاسل من حديد
ونرى القاضي يعرض للبيع مواطناً ضعيفاً
والأمير يرفع القاضي على وتد
والباشا يعلّق الأمير على عود المشنقة
والوزير ينكّل بالباشا
ويسلمه لانكشاري يقطع رأسه
والسلطان يخنق الوزير
لاكتشافه متأخراً بأنه قتل والده

1- الشعب

إنهم أبناء ملعونون لإبليس والشيطان
أتراك، قطيع خانع، جمهور خاضع بالسيف
عبيد يوضع حد لحياتهم
حين يحتاج السلطان لرؤوس يقطفها

2- السلاطين

متعطشون للدم منحطو الأخلاق، لا همّ لهم سوى التسلّط وإرضاء ملذاتهم، ففي قصيدة "المدينة المحتلة" يأمر السلطان الذي يقبل شعبه غبار نعليه بإحراق مدينة بأسرها فتهاوى القصور ويقضي الرجال والنساء والأطفال بالآلاف بحد السيف وتتحول المدينة إلى ركام.
نقطة ضعف السلاطين هي النساء، وقد يصل الأمر ببعضهم إلى التفريط بكل شيء من أجل إرضاء امرأة، فالسلطان أحمد وعد عشيقته بتنفيذ كل رغباتها، ولما طالبتة بإنكار دينه لم يتردد في ذلك.

3- الباشوات

الباشا العجوز "عمر" على استعداد من أجل الحصول على صبية يونانية فاتنة للتضحية بمراكبه وأسلحته المطعمة وأحصنته المفضلة وقلعته المحصنة ومنزله الصيفي الجميل والمجوهرات في خزائنه، وثلاثمائة فتاة يضمها حريمه.

4- العساكر

حيوانات مفترسة تزرع القتل والدمار ولا ينقصها السادية لتبتكر أشنع وسائل القتل:
"خنجري الذي يزين وسطلي يقطر دماً أسود
وفأسي القاطعة متدلّية من سرج حصاني"
فالجنود يقتلون الأبرياء بالآلاف وكلما تضاعفت أعداد الضحايا ارتفعت وتيرة حماسهم، فنرى المدن التي يمرون فيها تتحول إلى صحراء قاحلة ينقع الغربان فوق ركامها.

ملخص:

يعكس ديوان هوجو الصورة السلبية التي كانت سائدة في تلك الفترة تجاه الشرق، كما أنه يجسد المنحى الاستعماري الذي بدأ يشق طريقه إلى النفوس، حيث ضمن شعره دعوة صريحة لحرب صليبية جديدة:
"متى سنذهب؟ هذا المساء! فقد يطول انتظار الغد
بعض السلاح! أحصنة قليلة! مركب ينطلق من طولون

مركب! ولمَ لا تكون أجنحة!
فلتوجه بعض بقايا فيالقنا
وسنرى كيف أن نمور العثمانيين
تفر مثل الغزلان المذعورة!

الفصل الثالث:

الشرق بين السفر والفلسفة والسياسة
[لأمارتين] من "الرحلة إلى الشرق" إلى "الملخص السياسي"

كان الكاتب شاعراً رومانسياً مهتماً بالفلسفة وسياسياً كوزير لخارجية فرنسا، ومتديناً.

أولاً: النظرة الفلسفية والشاعرية

قصد الكاتب الشرق متحرر الذهن من الأفكار النمطية السائدة والأحكام المسبقة "كنت أحلم باستمرار برحلة إلى الشرق تكون بمثابة غوص في أعماق ذاتي.. ذهب شاتوبريان إلى القدس كالحجاج والفرسان متسلحاً بالتوراة والإنجيل والحروب الصليبية.. أما أنا فذهبت كشاعر وفيلسوف.

أ- الشرق أرض الإيمان وتلاقي الأديان

يبو تعاطف لأمارتين جلياً مع الشرق والشرقيين الذي رأى فيهم تجسداً للنموذج الفلسفي الذي كان يتوق إليه، والسبب في ذلك إيمانهم العميق الذي يحكم حياتهم ويحدد تصرفاتهم إزاء الحياة والموت. "لا يلتفت المسلم إلى اللذات الأنانية، ولا إلى متع الحياة الاجتماعية، ويكتفي بالاستمتاع بجماليات الطبيعة، فيحلم ويتأمل ويصلي. المسلمون شعب فيلسوف، يستوحي كل شيء من الطبيعة ويعيد كل شيء إلى الله، الله حاضر دائماً في فكر المسلم وعلى لسانه، يستذكره لا كفكرة مجردة وإنما كحقيقة محسوسة وثابتة ومعاشة.. إيمان هؤلاء الناس بالقدرية، يماثله لدى المسيحيين الحقيقيين الإيمان بالعناية الإلهية، ذاك أن الاستسلام لمشيئة الله يشكل معتقداً مشتركاً.
"إن المعتقدات التي يبشر بها القرآن ليست سوى المبادئ المسيحية معدلة بعض الشيء ولكن دون تشويه. حقاً إن هذه الديانة مليئة بالفضائل وإنني أحب هذا الشعب كونه شعب الصلاة".

ب- الشرق أرض التسامح

"إنه الشعب الأكثر تسامحاً على الأرض، وهو الأكثر تقديراً واحتراماً للعبادة والصلاة مهما تنوعت اللغات والطقوس، ذاك أنه لا يكره بالعمق سوى الإلحاد وهو يعتبره، عن وجه حق، انحطاطاً للفكر الإنساني وازدراءً للبشرية قبل أن يكون إهانة لله".
هنا استفاد من التجربة الإسلامية ليخفف من غلواء موجة الإلحاد الدارجة في الغرب آنذاك.

ثانياً: مؤشرات الانزلاق السياسي

بعد وفاة ابنته جوليا امتنع عن كتابة المذكرات حوالي أربعة أشهر، وبعدها بدأ يتعاطى مع الشرق بطريقة مختلفة.
"وحدهم سكان دمشق من بين الشرقيين لا يزالون يحدون حقدًا دينياً متزايداً".
واختلطت نواياه بمشاريع مبهمة تتلخص بالهيمنة على الشرق: "إن أي مغامر أوروبي يمكنه بمعاونة خمسة أو ستة آلاف جندي أن يقلب نظام إبراهيم باشا واحتلال آسيا من أزمير إلى البصرة ومن القاهرة إلى بغداد.. حتى عرب الصحراء سوف ينضمون إلى

مسيرته يوم يحسن التعامل معهم، لأن معبودهم هو المال ولأنهم لا يؤمنون فعلاً إلا بسلطة السيف والذهب. فبفضل هذا العيب في نفوسهم يمكن وضعهم طويلاً تحت السيطرة حتى يصبح إزعاجهم لنا حقيقة لا مناص منها. بعدها ندفعهم تدريجياً نحو الصحراء وطنهم الأصلي ريثما نتمكن من اجتذابهم إلى حضارة راقية لم يعتادوا أن يتذوقوا مباحها في النماذج الحضارية المحيطة بهم".

"لو كنت أملك نزرأ من ثراء بعض الممولين في باريس ولندن لغيرت وجه سوريا في عشر سنوات، لأن كل عوامل التجدد كامنة هنا، ولا ينقص سوى القبضة التي تحكم الإمساك والعين التي تجيد الرصد والإرادة التي تحسن قيادة الشعوب". ويتحدث عن الشعب التركي بلغته الجديدة: "إن استسلامه السلبي ومبالغته في الإيمان بالقدرية يعطّلان طاقاته بفعل إصاق كل شيء بتدبير إلهي.. هكذا حول الإسلام إلى إنسان متلقٍ سلبي مكبّل اليدين مُغرّق بالانتظار بفعل عزوفه عن المشاركة في صنع مصيره".

وينظر للمشروع الاستعماري قائلاً: "يمكن للإسلام وبدون أي إشكال أن يتناغم مع نظام يقوم على الحرية الدينية والمدنية ويشكل عنصراً فاعلاً في تكوين المجتمع الآسيوي.. فهو لا يكتثر بالسيطرة شرط أن ينعم بحرية العبادة، وبالعدالة والسلام". ورأى في مسيحيي الشرق خير حليف لهذا المشروع، وفي جزيرة قبرص خير قاعدة للارتكاز.

ثالثاً: تبلور النظرة الاحتوائية، نظرية "وضع اليد"

الملخص السياسي الذي أضافه لامارتين إلى كتابه يختلف كلياً عن مذكرات رحلته، ويقدم فيه طرحاً لإنقاذ أوروبا وآسيا، من انفجار الأولى من الداخل بفعل الأزمات المتتالية، واتجاه الشرق نحو قدره المحتوم ليصبح ورقة مطوية في تاريخ الإنسانية، فهنا حل البعد السياسي ولغة المصالح مكان الاندفاع العاطفي.

أ- الواقع الفرنسي بعد الثورة الفرنسية

إقرار مبدأ المساواة فجّر طموحات وأحقاداً فكثرت الأطماع، وضاعت المقاييس وتنامى الشعور بالثأر والمكيدة. أما حرية الفكر والكلمة التي جسّدها انعتاق الصحافة من كل القيود فقد انحدرت إلى مشاحنات تغذيها الأهواء المتضاربة، فانعدم الاعتدال والشعور بالمسؤولية وتبارز الأفرقاء المتخاصمون بحملات التضليل مما شوّه صورة الحقيقة. تعميم التعليم بدوره أنتج رداً فعل غير متوازنة كتلك التي تصيب المقيم في الظلمة حين نخرجه فجأة إلى النور ما أنتج اضطراباً سياسياً واجتماعياً بانتظار أن تجد هذه الطاقات الجديدة الوسائل التي تؤمن تأقلمها وانصهارها في المجتمع. التطور الصناعي نسف الأطر التقليدية وأسس العائلة، وصرف الناس عن الأعمال الزراعية وجعلهم يلهثون وراء الربح والبذخ وينساقون إلى مفاصد المدنية.

"هناك حالة ضاغطة تلزم فرنسا وأوروبا بالتوسع، ومن الضروري أن يكون التوسع نحو الخارج متلائماً مع حجم المشكلات التي تتفاقم في الداخل".

ويستنتج أن الفراغ الكبير الذي يعم في الشرق ليس سوى مؤشر لتدبير إلهي ف "فيض الحيوية الأوروبية لن تستوعبه إلا تلك المنطقة من العالم حيث خمدت دينامية الحياة واستكانت، وحيث نلاحظ بأن الناس يتعفنون وتُضمّر إمكاناتهم".

ب- واقع السلطنة العثمانية

امبراطورية الأتراك على وشك الانهيار ولا حاجة لمؤامرات ولا حروب تُشن عليها، فالمغرب العربي خرج عن السيطرة العثمانية، أما مصر فقد انفصلت فعلياً عن السلطنة، فيما بلدان الخليج العربي موزعة على قبائل، أما بغداد ودمشق فمدنيتان تتطلعان للتحرر من السلطة التركية، مثل لبنان، ولا ينسى كذلك قبرص وروديس وصربيا وبلغاريا التي بطبعها تعادي الأتراك.

ج- وسائل العمل

ما هو الطريق الأمثل الذي يجب أن تسلكه أوروبا يوم تظهر على السلطنة العثمانية آثار التفكك؟

هل تتصارع فيما بينها للسيطرة على الامبراطورية المهترئة؟
أم تتفق فيما بينها وتتوزع السيادة على التركة العثمانية فتسير بهذه المناطق في طريق التقدم والرقى؟

ملخص:

تجربة فريدة انتقل صاحبها من الإشادة والتعاطف الكلي بشكل سريع وغير مبرر، إلى الترويج لأفكار الهيمنة والتملك.

الفصل الرابع:

من التخيل الرومنسي إلى الواقعية الفظة
الشرق المنحرف في مراسلات فلوبيير

أولاً: الشرق القديم

"في الكرنك أمضينا ليلة تحت أقدام تمثال ممنون الضخم والذباب يفتك بنا. في الواقع إن لهذا الوغد سحنة لا بأس بها. ومن الملاحظ أن النقوش التي تغطي هامته الحجرية المتآكلة كالمومياء تشكل مع براز العصافير الأثرين الوحيديين للحياة في آثار مصر".

القدس "مدينة الحزن العميق وكأن لعنة الله تخيم عليها، إذ أنك تسير باستمرار فوق الأوساخ والبراز ولا ترى سوى الآثار المتهدمة".

"زرت كنيسة القيامة ودخلت حيث قبر المسيح، وهو أشبه بكنيسة صغيرة تتلأأ فيها المصابيح التي تذكرنا لكثرتها بركان بائع المصابيح".

ثانياً: الشرق الحديث

أ- المناظر الطبيعية والمدن

".. هناك عامل واحد لم أكن أتوقعه بهذه الكثافة ألا وهو البشاعة المثيرة للسخرية".

ب- الناس والعادات

"إنك تعود من زيارة الأراضي المقدسة بتقوى أقل. فهنا تسيطر الخسة والدناءة والمتاجرة بالمقدسات وكل الأمور المخزية بشكل يفوق التصور، الكذب في كل مكان، وهو الحقيقة الوحيدة الساطعة".

"الناس هنا على دين ملوكهم. فقد تنامي الشعور الوطني المصري إبان حكم محمد علي ثم عاد ليتراجع.. وقد يتعاطف الشعب مع الإنجليز فيما لو احتلت إنكلترا مصر.. والثابت الوحيد لدى هذا الشعب هو أنه لا يأخذ شيئاً على محمل الجد.. متسكح، كسول، يحب الكلام المنمق والفارغ ويهوى الدعابة والحفلات التنكرية والمظاهر الاحتفالية".

حالة الانحناء أمام القوي تفسر احترام الناس للأوروبي الذي يميزونه من ثوبه ومظهره فيفسحون له الطريق أو يبالغون في إكرامه.

"إذا قصدت السوق لابتياح علبة تبغ فالأمر يتطلب نصف نهار، بسبب كثرة البائعين الذين يتهافتون لاستقطاب مرافقك وكلّ يحاول أن يغش جاره، فيتعالى الصراخ وتنهمر الشتائم ولا يلبث الأمر أن يتطور إلى عراك. إنه لمشهد في قمة الإثارة".
"هنا الشعور الوطني يكاد يكون معدوماً، وقد سمعنا عرباً يقولون: أعطونا كسرة خبز ونحن على استعداد لاستبدال الطربوش بقبعة".

والوضع الاقتصادي بنظر الكاتب يتلخص بأنه لا يوجد اقتصاد، والإدارة تتلخص بالبخشيش.. حتى لتظن نفسك في العصور القديمة ذاك أنه في الشرق لا شيء يتطور.

ثالثاً: الشرق بلاد الانحراف

انحصرت اهتمامات فلوبير في مختلف محطاته الشرقية بالتفتيش عن نساء ساقطات يشبع معهن نزواته، فالإسهاب في وصف حملات المجون والمغامرات الجنسية يبلغ حد الهوس.. فبنظره أن الشرق يقدم نموذجاً صارخاً للانحراف والفسق. وهكذا نفهم انصراف فلوبير عن التعمق في وصف مناظر الشرق وآثاره وعاداته، ذلك أن همه الحقيقي كان الانغماس في المغامرة بعد سنوات من العزلة في كرواسيه في كنف والدة صارمة شديدة التضييق عليه. من هنا فإن الشرق شكّل بالنسبة إليه مساحة للتفلّت من القيود المفروضة وإمكانية لتفجير طاقاته المكبوتة، وليس مكاناً للتعرف على الآخر المغاير.

ملخص:

"يكفي ألف وخمسمائة جندي لاحتلال هذا البلد (مصر)، إذا لم تعارض هذا المشروع أية حكومة أوروبية". فبالرغم من ابتعاد فلوبير عن السياسة وانصرافه الكلي إلى مغامراته النسائية فإنه كأبناء جيله راح يردد بصورة ببغائية بعض الأفكار النمطية حول احتلال الشرق، .. هكذا يبدو الشرق في منتصف القرن أرضاً مستباحة تصلح لتنفيس المكبوتات وتحقيق الأطماع.

الفصل الخامس:

إقرار الشرق بتفوق الغرب

"الفلاح"، [إدمون أبو] 1869

تضاربت الالتزامات المادية لدى الكاتب، فالخديوي إسماعيل اشترى منه الكتاب قبل صدوره بمبلغ ضخم، والحكومة الفرنسية أوكلت إليه هذه مهمة جمع معلومات دقيقة حول بعض المشكلات السياسية والاقتصادية المصرية والتي تهم حكومة فرنسا كالإصلاح القضائي والإنماء الزراعي والعقبات التي تعترض إنجاز حفر قناة السويس. لجأ الكاتب إلى خطاب مزدوج يبرز تطور النظرة إلى الآخر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

أولاً: الرواية- الرحلة واختلاط الأنواع الأدبية

البناء الروائي باهت حتى الانعدام، فالقصة تشكو من التبصر وتفتقر إلى وحدة الموضوع.

ثانياً: البعد التاريخي

أهمية الكتاب تكمن في إضاءته على جوانب عديدة من المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي عانت منها مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ومدى تأثيرها على علاقات مصر بدول أوروبا في مرحلة بالغة الدقة.

أ- إصلاح النظام القضائي وإعادة النظر بالامتيازات الأجنبية

قانون الإمتيازات Capitulation أفسح في المجال لبروز دويلات ضمن الدولة لها قوانينها الخاصة. واقترح المصريون لحل الإشكالات الناشئة عن هذه الوضعية اعتماد محاكم مختلطة، غير أن محاولات أعوام (1860-1867-1869) فشلت. ينقل الكاتب صورة عن الظلم الذي لحق بالمصريين على لسان أحد الغربيين: "الأجمل من ذلك هو سهولة الإستيلاء على عقارات الغير، كأن أستأجر منزلاً من مالكة العربي، وما أن يحين موعد التسديد حتى أقول له: إنك تزعجني أيها الأسمر اللعين، إياك أن تخاطبني بعد اليوم إلا عبر قنصليتي، إذهب وإشتك. والغريب أن هذا المغفل يذهب ويتقدم بشكوى ويدفع الرسوم مسبقاً كما تنص القوانين. ويدوم الأمر ستة شهور أو سنة أو أكثر. وحين أدرك بأن هناك احتمالاً بصدور الحكم لغير صالحني أتنازل عن الإيجار لصالح

بلجيكي يدفع لي مائة دينار بدل خلو، فيتبدل مسار الدعوى، وعلى الشاكي التوجه إلى قنصل بلجيكا ويدفع رسوماً جديدة". ويحذو البلجيكي حذوه وكذلك الآخرون. ويبدو الكاتب متعاطفاً مع طرح المحاكم المختلطة، بحيث يحقق رغبة الخديوي، وفي الوقت نفسه لا يسيء إلى بلاده، لأن من شأن هكذا صيغة بنظره تلميع صورة أوروبا في أذهان المصريين. وعام 1876 أعادت فرنسا النظر بنظام الامتيازات في مصر.

ب- الإصلاح الزراعي

فقر الفلاح وجهله وشحّ موارده المالية ولجوئه إلى الوسائل البدائية انعكس انخفاضاً في الإنتاج وتراجعاً في الجودة مما حثّم التفكير بأساليب جديدة ودفع بالسلطة السياسية إلى إرسال البعثة تلو الأخرى إلى أوروبا سعياً إلى مشروع إصلاح يعيد إلى الزراعة أهميتها في اقتصاد مصر. يعرض هنا الكاتب لتجربة أحمد الفلاح المصري الذي تضاعف إنتاجه بشكل هائل.. "ليلجأ الفلاحون إلى الوسائل التي أستعملها وسينجحون جميعاً كما نجحت"، وبأشر بالفعل بتدريب مجموعة من الفلاحين الشباب على التقنيات الحديثة.

ج- حفر قناة السويس

تعكس الرواية حجم التشكيك الذي واكب الحفر حتى في مراحلها الأخيرة، كما تعكس خفايا الصراع الإنكليزي الفرنسي وأجواء التمليل الشعبي المصري. موقف الكاتب مؤيد لهذا المشروع الحضاري، يسانده أحمد الذي يتكلم كمثقف مصري واع يرفض أن ينقاد إلى انفعالات الشارع، والإنكليزي السيد لونغان كصاحب رأي متجرد يشهد للحقيقة مخالفاً أصحاب المصالح والمشاريع المشبوهة من أبناء جلدته.

ثالثاً: صورة عن الحياة المصرية

أحمد يلجئ في الوقت المناسب غلواء تعصّب لوطنه ويلتفت إلى بعض التصرفات والممارسات والعادات المتأصلة في النفوس ليزيل قشرتها الواهية ويفضح وجده الفقر والجهل والتخلف التي تعيق تقدّم المجتمع المصري.

أ- الحياة المصرية: من صخب الشوارع إلى عفن الإدارة

القاهرة مدينة يسيطر عليها الجمود وينهشها الخراب بالرغم من بعض المحاولات التحديثية اليائسة: "إن القاهرة هي أشبه بمناهة حقيقية، فجميع شوارعها، باستثناء واحد أو اثنين شقّت بدون أي تخطيط.. ويبدو التحديث هنا دخيلاً ومستنكراً ومن غير المتوقع أن نرى تحولاً ملموساً في القاهرة قبل مائة عام..". "من بين ثلاثمائة ألف شخص يتحركون يومياً بالقرب من المقطم هناك ما يزيد على مئتي وخمسين ألفاً يعيشون ولا طموح لهم سوى حفظ القرآن والارتواء من مياه النيل وملء بطونهم بالخبز المبلول". "الوزارات أماكن عامة بكل ما للكلمة من معنى، إذ يدخلها من يريد، أكان شحاذاً أو بائع عود ثقاب، أو بائع خبز أو لبن أو بلج..". "وها هو راغب باشا يقرأ معاملة عليه أن يوقّعها.. "وبازدراء كلي يرمي الوزير بالمعاملة أرضاً ليسرع رئيس ديوانه إلى التقاطها".

ب- الفلاح المصري بين مطرقة الفقر وسندان الجهل

أحمد: "أنا ابن الحضارة الأوروبية، فباريس ولندن شدّبا شخصيتي وهذبّباها وصقلاها، إلا أنني في العمق بقيت فلاحاً.. إن بيتنا هو عبارة عن كوخ من طين لا تتجاوز مساحته ثلاثة أمتار وهو بلا سقف ولا نوافذ، سطحه رزمة قش وقفله مزلاج خشبي وكل محتوياته تختصر بحصير من قصب وإبريقين وقصعتين من فخار.. لم يتعلم والدي الكتابة والقراءة، كسائر الفلاحين من أبناء جيله" ولطالما قضى الفلاحون في أعمال السخرة أو شردوا من منازلهم، ولا من يرأف بحالهم أو يمد لهم المساعدة، فهم الطبقة المسحوقة التي طالما عانت من القهر والظلم".

ج- المرأة المصرية بين الجهل والانحراف

المرأة الشرقية إما جاهلة ومحتجزة في الحريم تعاني من سطوة الرجل وظلمه، وإما غانية ترقص في الملاهي فتعرض جسدها بشكل مبتذل ومثير للاشمئزاز.

أحمد: "إن التربية التي تُعطى للمسلمات هي تربية غبية.. فلا يتعلمن سوى تهيج الغرائز ويتحولن إلى كائنات تعاني من الدونية يودين بالرجل إلى الانحطاط.. فالطاقة الكبرى في الشرق ليس التبغ أو الأفيون أو الحشيش، إنها المرأة!"
"وإذا تفحصنا واقع الحال فإن الرجل يتزوج من فتاة أمية ودون تربية أخلاقية أو أي حس بإنسانيتها، فيحتجزها في بيته لإرضاء نزواته.. وهكذا فإن هذا النظام أنتج شعباً قوامه رجال تعساء ونساء منكودات."
"في هذا السجن يسود الضجر والفراغ القاتل، فيستعاض عنه بتنويع وسائل اللهو والمرح التي غالباً ما تخفي في طياتها أجواء الفحش والرذيلة".

د- الدين بين الإيمان والشعوذة

تأثر الكاتب بفولتير الذي دأب على نبذ التعصب الديني: "الفلسفة تقودنا إلى النظر بتعال إلى العقائد اللامنطقية والمبادئ الاعباطية والخرافات المثيرة للسخرية والتعصب الذميمة.. والله لا ينتمي إلى أي طائفة والدين الحقيقي يقوم على التسامح". إلا أن الكاتب ومن موقعه الفكري هذا لم يتوان عن انتقاد الطقوس الدينية بإفراغها من محتواها ومن أي بعد روحي.

ملخص:

دعوة صريحة للاستعمار

ثمة ضوء خافت يدل على الطريق للخروج من النفق المظلم: عودة فرنسا للأخذ بيد مصر على طريق التقدم.
أحمد: "إنني أدرك وأقر بأن شعبنا متخلف، ونحن لا زلنا في القرن الثالث عشر أي في عمق القرون الوسطى"، "نحن بحاجة إلى آلاتك وتقنياتكم.. وحده الأوروبي يستطيع إصلاح المباني والقنوات وسكك الحديد والبواخر والآلات."
"إن أوروبا تقود عملية ناجحة إن هي استعمرت بلداً لا يبعد عن مرسلينا أكثر من ستة أيام."
"نحن بحاجة ماسة إليكم، ويمكننا في الوقت ذاته أن نكون مفيدين لكم. فمصر تناشد اليوم القوى المتحضرة لرعايتها."
"لا نطلب سوى أن نضم إلى أوروبا فيما لو كلفت هذه الأخيرة نفسها عناء ربط مصالحها بمصالحنا. ولكن احتلال مصر لا يتم بإرسال حفنة من المنفعيين بين الحين والآخر".

الفصل السادس:

الشرق موطن الخيبات

"السرب الشرقي"، [لويس برتران]

خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر اندلعت مقاومات ضد الاحتلال الفرنسي في الجزائر وتونس، وتنامت أيديولوجيا الجامعة الإسلامية التي ركّز مفكّروها على مسألتي الإصلاح والهوية، كما شددوا في ذات الوقت على تطهير الإسلام من الشوائب باعتباره أساس المقاومة الدفاعية ضد الطموحات الغربية.

أولاً: جذور الحملة ضد الانجذاب نحو الشرق

استهلكت مادة الشرق بشكل هائل حتى أصبحت ممجوجة على المستوى الأدبي والفني، واعتبرت بعض التيارات الأدبية أن الشرق ليس سوى مكان للوسخ والتعفن والجهل ولا يستحق بالتالي أية التفاتة عطوفة من الغرب. وقال أرنست رنيان على 1883: "إن أي شخص له إمام بسيط بشؤون عصرنا يستطيع أن يرى بوضوح الدونية الحالية للبلدان الإسلامية، وبالتالي انحطاط الدول الواقعة تحت سيطرة الإسلام والعجز الكلي للأجناس البشرية التي تستمد من هذا الدين فقط ثقافتها وتربيتها".

ثانياً: الشرق، هذا الوهم الكبير!

الشرق مكان موبوء وموئل للتوحش وحائط مسدود في وجه التقدم، كما أن وهم كبير يغذي بعض المخيلات المريضة.

أ- الرحلة والجهد البطولي

انتهت الجهود التي كان يبذلها الرحّالة في انتقالهم إلى وداخل الشرق، بعد تطور المواصلات ووسائل النقل.

ب- خرافة اللون المحلي

يسعى برتران إلى تشويه نقاط الانجذاب نحو الشرق الواحدة تلو الأخرى، فكما فقدت الأماكن الأثرية سحرها، هكذا تلاشت صور الشرق الجميلة كصخب الأسواق القديمة وبهجة الألوان الزاهية وصناعة الأواني المطعّمة والأقمشة المطرّزة، ولم يعد لها من أثر إلا في مزيّلة بعض الكتاب والشعراء والرسامين. "أنظر مثلاً إلى هذه الأواني النحاسية التي تخدش الأصابع لدى ملامستها، أو إلى أباريق القهوة التي يشرب منها الماء ولا تصلح حتى لأن تُستعمل كمزهريّة.."

التجارة قائمة على الغش، فمعظم البضائع التي تُباع على أنها شرقية قد استوردت من أوروبا.

ج- الشرق - المزبلة

الرطوبة والحرارة المرتفعة تصيبانك بالاختناق والتوتر والإرهاق ف "هذا الغبار الأسود والخانق الذي يزحف باتجاهك مع رياح الخمسين اللاهبة.. فيتسلل في كل مكان، يلتصق بثيابك ساخراً من أية رغبة في الحفاظ على نظافتها، ويشرب إلى الخزانات والحقائب المحكمة الأقفال، ويدبق بين أصابعك ويجفف حلقك".

ثالثاً: الشرقيون، هذا الشعب البائس!

"هذا القطيع من البشر، هؤلاء الناس الذين يشكون من سوء المسكن وسوء التغذية، والمتدثرين بقطعة من قماش لا يكادون يتميزون- لولا شكل وجوههم- عن الحيوانات التي يعيشون بينها، فيتشابهون مع قطعان الحمير والكلاب الشاردة".

رابعاً: الشرق ونظرية الطبائع الثابتة

لم يأتِ برتران ليكتشف الآخر، لأنه يعرفه منذ زمن، بل ليؤكد بأن للعربي في مصر وسوريا ولبنان وفلسطين، كما للتركي في أسطنبول، أو للجزائر الذي جاوره لفترة طويلة، نفس المواقف وردات الفعل. إنهم جميعاً يتصرفون كـ "شركيين".
و"يجب النظر بعمق إلى هؤلاء الناس الذين قد يكونون غداً أخصامنا، وهم الذين لم تنقطع مخيلاتهم يوماً عن استرجاع ذكرى تلك الأيام التي كانوا فيها منتصرين علينا".



.RESEARCH SERVICES GROUP

www.ipileb.com